الرموز الاصلاحية التاريخية وحقولها المعرفية في الشعر الفلسطيني المعاصر
- الإمام الحسين عليه السلام وأبو ذر الغفاري أنموذجاً -

الأستاذ المساعد الدكتور
عاطي عبيات
جمهورية ايران الإسلامية
جامعة فرهنكيان رسول الأكرم ﷺ ـ الأهواز
ati.abiat@yahoo.com

الباحث
مرتضي رضائي زاده
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة فرهنكيان رسول الأكرم ﷺ ـ الاهواز

الباحث
حسين الساعدي
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة أمير المؤمنين ـ الأهواز

فرضية البحث:

استطاع الشاعر الفلسطيني المعاصر عبر توظيف الرمز التاريخي المتمثل بشخصية الإمام الحسين عليه السلام وأبي ذر الغفاري(رضي الله عنه) تقديم شخصية فلسطينية مسالمة ومناضلة ومضحية معاصرة من أجل ارساء الحق والمبادئ الإنسانية وداعية للسلم، موازية للشخصية التاريخية المنبثقة من تراثها العريق.

يهدف البحث:

يهدف البحث إلى إثبات أن استدعاء الرموز المناضلة الإصلاحية (الإمام الحسين وأبي ذر الغفاري) وتوظيف دلالاتها في بنية القصيدة الفلسطينية المقاومة للاحتلال من شأنها تعميق الأثر الفني واخراجه من السطحية، كما يقوم بتحريك الضمير الإنساني عموماً وضمير الشارع الإسلامي خاصة، بضرورة مراجعة تراثه القائم على التضحية والفداء والوقوف بجانب المضطهدين والتمسك بنهج اهل البيت وصحابتهم في الدفاع عن المظلومين.

المقدمة:

يعتبر استدعاء الرمز التاريخي في بنية النص الشعري عنصراً فاعلاً يسهم في إثراء اللغة التعبيرية وتفعيل التجربة الشعرية وتزويد الشاعر بمقدرات فنية ودلالات موحية تثمر عطاءً سحرياً ممّا يؤدي استثمارها في تخصيب تجربة الشاعر المعاصر ورؤيته الإنسانية، وهذا الأمر

حدا بالشاعر الفلسطيني على إعادة بناء الماضي وفق رؤيته المعاصرة، تمهيداً للتعبير عن أفكاره وقضاياه الوطنية المعاصرة، التي يعيش من أجلها، ويؤمن بها، وينضال عنها، وإيصالها إلى المتلقي، لإثارة روح المقاومة والنضال وإذكاء الوعيين الفردي والجماعي إلى الظروف التاريخية المتشابهة بين الماضي والحاضر. فالشاعر في توظيفه للرموز التاريخية لا يسعى إلى الاستعانة بحقائق التاريخ ومضامينه، بل يعتمد على المضامين الأثيلة فيه، فيمنحها زخماً عاماً بحيث يجعلها تتجاوز ماضيها وحقبتها ويوفر لها قدراً من قوة التواصل المباشر مع الزمن الراهن، لتظهر بسماتها وعناوينها المميزة كما كانت في زمنها. فاستدعاء الشخصيات والحوادث التاريخية في الشعر تدل على سعة الشاعر الثقافية ومعرفته بالتراث وهو ما يزود مقدرته الشعرية وحتي العلمية بما في التراث من قيم فنية، فلا ضير إذا اشتدت أواصر الشاعر المسلم بتراثه وتاريخه فهو أشد التصاقاً من غيره بتراثه لما يرى فيه من مجد وعزّ وفي حاضره من تقهقر وهزيمة وتخاذل وتقاعس فيستذكر ما كان لعله يخفف وطأة الواقع المرير الراهن على نفسه، كما أنّه لجأ إلى التراث التاريخي ليخبئ فيه مالم يستطع الافصاح والتعبير عنه صراحة. لكي تكون ((معطيات التراث واستلهماته التاريخية صورة رامزة للواقع المفعم بهموم القضايا السياسية حيث يخبئ الشاعر في لوحة التراث لون فكره وخطوط رأيه، وتصبح اللوحة التأثرية مزيجاً لألوان يمتزج فيها الماضي بالحاضر(رجاء٢٠٠٣، ٣٢٢) ثمة قضية أخري قد يستلمها الشاعر من الرمز التاريخي وهي ((مسألة استذكار الأمجاد التاريخية الإسلامية والإنتصارات الرائدة التي سعي شعراؤنا من خلالها إلى إستنهاض الهمم وبعث الأمل في نفوس الناس خاصة حينما يشتد بهم القمع والقهر والتنكيل وبهذا سنجد أن التأثر لم يقتصر على الموضوعات والأحداث فحسب، بل تعداها إلى محاولة استرجاع القيم الحضارية في التاريخ الإسلامي خاصة)) (الهاشمي،١٩٨٦، ٢٩٤) فحضور الرمز التاريخي داخل النصوص الشعرية كما يقال لا يعني بأي حال من الأحوال تضمين هذه النصوص لتلك الأحداث التاريخية على شكل تزيين فضاء النص الشعري بأسماء تاريخية باردة الدلالة، بل لابد أن تكتسب تلك الرموز التاريخية شرعيتها داخل النص الشعري، بقدر ما تمنحه من تفعيل للبعد الدلالي والرمزي لتلك النصوص. فالشاعر المعاصر يجد في المصادر التاريخية ((ما يقنّع به النص المعاصر، بقناعات توحي إلى وشائج العلاقة بين الحاضر والماضي بحيث يؤدي هذا القناع وظائف متغايرة، ويلعب أدوار مختلفة ويحقق

غايات وأهداف متباينة)) (بسيسو، ١٩٩١، ١٢) فالتوظيف الجيد للرموز التاريخية يجب أن لا يتم بفرض هذه الرموز على النص، بل يجب أن تكون هناك علاقة عضوية بينها وبين القصيدة، بشكل يجعل القارئ يحس بأن الحاجة إلى ذلك الرمز التاريخي نابعة من داخل الموقف الشعري.

الدراسات السابقة:

قد حاول كثير من الدارسين - الوقوف عند محطة الشعر الفلسطيني، باذلين في ذلك جهدا مشكورا ومضيفين إلى مكتبة الشعر العربي المعاصر لبنات خصبة ومضيئين لكثير من جوانب هذا النبع الزاخر، فالمحاولة التي تقوم بها هذه الدراسة لا تعدو أن تكون وجهة نظر مجتهدة في تحليل تقنية توظيف الرمز التاريخي ودلالاته لشخصيتين عظيمتين في تاريخ الإسلام وفق معطيات اواقع الشاعر الفلسطيني. وعلى حد ظنّنا ومتابعتنا لم نجد دراسة عنيت بشكل خاص بهذا الموضوع بل كلما ما وجدناه سطور متناثرة حول شاعر أو شاعرين، وتعترف هذه الدراسة بجهود السابقين وتقدرها حق قدرها. ومن أهم الدراسات التي عثرنا عليها. دراسة((ملامح الادب المقاوم في فلسطين))، دمشق٢٠٠٩، للدكتور حسن جمعه والذي سلّط فيه الضوء على المفاهيم العامة وطبيعة مواجهة الكتّاب للأزمات والنكبات، ومقال ((توظيف النص الجاهلي في جوانب من الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد٢٠٠٨،٢٢)) لأحمدي منصور وأحمد رحاحة والذي تناول النصوص الشعرية الجاهلية وفحواها في النص الشعري الفلسطيني، ومدى وئامها مع تجربة شعراء فلسطين. ومقال((تجليات اسطورة البعث في شعر محمود درويش، مجلة جامعة دمشق، المجلد٢٦، ٢٠١٠)) والذي تطرق فيه الكاتب، للرموز التي تشير إلى البعث ومدي تأقلمها مع تجربة الشاعر. ومقال ((التناص في مختارات من شعر انتفاضة الأقصى المباركة- ٢٠٠٦،مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية حمدان، عبدالرحيم حمدان. ومقال ((الرموز التراثية في شعر عزالدين مناصرة، مجلة جامعة دمشق،٢٠١٠)) للباحث إبراهيم منصور الياسين. ومقال ((ثورة١٩٣٦-١٩٣٩في الشعر الفلسطيني، مجلة الاسلامية، المجلد السادس، العدد الاول،١٩٩٨)) للباحث ياسر أبو علوان والذي سلّط فيه الضوء على خصائص شعر الثورة من الناحية الموضوعية والفنية، ومقال خالد الكركي المعنون ((رموز الرفض والثورة في الشعر العربي الحديث ١٩٧٨ مجلة دراسات، جامعة - الأردن، المجلد١٤، العدد٧)).

١ـ الرمز التاريخي والشعر الفلسطيني

أصبح التاريخ من ابرز المصادر التي يستقي منها الشاعر المعاصر مادة رموزه، وقد استفاد الشعراء الفلسطينيون من الرموز التاريخية، فوظفوا بعضاً من هذه الرموز والشخصيات، كما عمدوا إلى إعادة تشكيل الرموز والشخصيات التاريخية وتحريرها ولو جزئياً من العلاقة الوثيقة التي تشدها نحو مرجعيتها التاريخية وذلك تنسجم مع ما يطرحون، ولعل التوجه نحو الرمز التاريخي حسب قول إحسان عباس((أنّ الشاعر إنّما يوظف الشخصيات الرمزية ليعبر عن موقف يريده، أو ليحاكم نقائض العصر الحديث من خلالها)) (عباس، ١٩٧٨، ١٥٤) فالرمز التاريخي لا يقف عند حدود الشخصية التاريخية، فالرمز التاريخي يمتد ليشمل أنماطاً أخري مثل الرمز الدال على الحدث، والرمز التاريخي الجمعي ((أي الدال على فئة أو أمة أو فترة متميزة (سليمان،١٩٨٧، ٤٦) إن لجوء الشاعر الفلسطيني إلى استنطاق الشخصيات التاريخية، واستلهام أحوالها في تجاربها الغابرة يساعده على تطعيم البوح الشعري الذاتي بنسغ واقعي، وموضوعي ويبعده من البوح الغنائي العفوي المباشر لينتقل به إلى السرد الفني الممزوج بتأمل جوهري للظواهر والعلاقات. وبذلك استطاعوا أن يتجاوزوا الغنائية والرومانسية إلى الاندفاعات الثورية والتأملية. فلقد وظّفوا الشخصيات والأحداث التاريخية على شكل إسقاطات بكثرة في دواوينهم الشعرية، ولا يرجع ذلك فحسب إلى ((لجوء الفنان إلى معين التاريخ في عصور التردي والإحباط، إذ يتوجه الفنان إلى التاريخ بحثاً عن المثل الأعلى، رغبة في التعويض العاطفي، وربما رهبة من وطأة زمن العجز الذي يحياه، وهرباً إلى أحضان الماضي الذي قد يبدو مجيداً أو مثالياً بالقياس إلى الحاضر(قاسم، ١٩٨٣، ٢٣٦) بل استطاع الشعراء من خلال هذا الكم الهائل من الإشارات التاريخية أن يعبّروا عن رؤاهم الإنسانية، وأن يعيدوا رسم خرائط الوطن الفلسطيني والعربي والعالمي بشخصياته وأزمانه وأماكنه، وفق رؤيا شعرية تتساوق مع الحاضر، وتكشف عن شهادة شعرية إبداعية حية تتصل به، وتستحضر أبعاده بما فيها من انتصار وانكسار، وحلم في صنع مستقبل إنساني أفضل فإن تعدد الإشارات التاريخية لدى الشعراء الفلسطينيين من عربية وإسلامية وعالمية ماضيه ومعاصرة، يدل على مدى اتساع الحدقة الشعرية والرؤيا الإبداعية وعدم الانغلاق على الذات الفردية، واستكناه الأبعاد الإنسانية الشاملة، وتوظيفها لإضفاء صورة حية عن واقعهم، جعلهم يعيدون تشكيل الوطن

الذي ا تخذ صورة مثالية، مصورين حياة شعب محروم من شروط الحياة الإنسانية المألوفة في ظل نكبة، تضغط على عصب القلب، وتدل على وحشية الاحتلال وإرهابه، الذي استمرأ الولوغ في دمه وتزوير تاريخه، لكنه - أي الفلسطيني - يدافع عن بقايا وجوده الذاتي وهويته القومية، بل يحمل عبء الدفاع عن الأمة أو "دول الصمت العربي"، التي اكتفت بالاستنكار الأجوف الخالي من الفعل الإنساني أو الحضاري.

٢ـأهمية الرمز التاريخي عند شعراء فلسطين.

إنّ الشعراء الفلسطينيين قد نهلوا من التاريخ شيئاً وافراً للتعبير عن قضاياهم الوطنية والقومية والإنسانية العادلة، ودافعوا عن كينونة الأمة التي ينتمون إليها، وقاوموا العدو الذي جرَّدهم من أرضهم، لكنه لم يستطع تجريدهم من تاريخهم، فرسموا صورة الوطن في نفوسهم وأرواحهم قبل أن يرسموها في شعرهم، وكانوا حكاية الدم المسفوك الذي يرويه سفر النكبة وسفر التاريخ على حد سواء في قصيدة شعرية مجبولة بدمهم وبتراب الوطن (نمرموسي،٦) وبهذا فإن القصيدة ((حين تومئ إلى ما يقع خارجها من نصوص وأحداث ومرويات، فإنها تفتح ميراثاً وجدانياً ومعرفياً مشتركاً بين الشاعر والجمهور، وتوقظ الذاكرة الوجدانية والجمالية للمتلقي، ليبدأ نشاطه في استقبال القصيدة والتماهي معها(نقلا عن نمر موسي، العلاق،١٩٩٧، ٨٣)فدخلت الشخصيات التاريخية والفلسطينية والعربية والعالمية القديمة والمعاصرة المتن الشعري الفلسطيني، وهي محملة في الغالب بدلالات فكرية ونفسية عميقة بعد تحويرها، أو تعديلها، أو امتصاص دلالاتها الموروثة بما يتطلبه السياق الشعري، ولم يكن الشعراء في ذلك على مستوى واحد من التوظيف، فقد تعددت شخصياتهم، وتعددت طرائقهم في استحضار الشخصيات التاريخية ما بين حضور موفق يتلاءم مع السياق الدلالي، وحضور مفاجئ لا مبرر لوجوده ولا يستدعيه السياق حيث ((يتم استدعاؤه من الذاكرة دون أن تختمر لدى الشاعر تلك الكيفية التي يستطيع بها عقد زواج شرعي بين السياق والرمز. وبالمقابل تظهر بوادر الرمز قبل حضوره في السياق لدى بعض الشعراء، مما يؤكد أن السياق الشعري إنما يستمد قوته وتدفقه ونكهته من هذا الرمز، وحتى وهو ما يزال غير معلن عنه، فيكون حضوره بعد ذلك، تأكيداً لهذه الدلالات، وتعميقاً لها في الوقت نفس(راجع ١٩٨٧، ٢٧٩)، وبذلك يتسلل الرمز التاريخي في السياق الشعري بصورة تدريجية، تجعل من حضوره ضرورة يتطلبها السياق ليغتني بها ويكتنز بالدلالة. لقد

عكف الشعراء الفلسطينيون على توظيف الشخصيات التاريخية، واستحضارها في متونهم الشعرية بكثافة، جعلت منها مادة معرفية، ينعكس من خلالها الإنجاز الإنساني في صورة حركية، لا تقدس القديم بشخصياته وأحداثه بقدر ما تتفاعل معه وفق رؤيا معاصرة، تعمل على إنتاج دلالات جديدة، ترتبط بروح العصر، وتؤطِّر النص الشعري للكشف عن أحلام الجماعة وطموحاتها الإنسانية. وبذلك تتمايز طريقة حضور هذه الإشارات التاريخية في الخطاب الشعري الجديد عن الخطاب الشعري الكلاسيكي أو التقليدي لدى شعراء النهضة وفترة الإحياء، حيث كان التوظيف لديهم ((يتسم بارتهان النص الشعري بالواقعة التاريخية ضمن زمنها الخارجي أولاً، وضمن تسلسل الوقائع الأخرى الحافة بها، لأن القصد الذي يلجأ الشعراء إلى هذا الفن (أي نظم الوقائع التاريخية) كان خارجياً، يأتي من التاريخ أولاً، لا من النص نفسه، فيكون وجود (التاريخي) في (الشعري) هدفاً لا وسيلة، وفي الأغلب يتجه الهدف إلى غرض تربوي أو تعليمي أو أخلاقي أو قومي، يستثير الهمم، ويذكر القارئ بدروس التاريخ، ليتعمق انتماؤه إلى أمته، وإحساسه بعظمتها، وسمو ماضيها، مما لا يليق معه أن ينالها الهوان في حاضرها)) (الصكر،١٩٩٩، ٢١٥)، لكن جاذبية استدعاء الوقائع والشخصيات التاريخية في الشعر الجديد، تسعى إلى التعبير عن التوأمين الحرية والسلام، باعتبارهما من الرموز الأساسية التي يطمح إلى تحقيقهما الشعراء المعاصرون لصنع حاضر إنساني مشرق. إن نقل الشخصية التاريخية من زمنيتها الماضية إلى زمنية الحاضر والتعبير عنه، كانت الهم التاريخي الشعري الذي شكَّل ملمحاً متميزاً من ملامح الشعر الجديد، وأضفى على التجربة الشعرية بعداً إنسانياً شاملاً، وبهذا تتشكل "زمنية آنية، تختصر المسافة بين الصوتين، ليتلبس كل منهما صاحبه، فكلاهما رهين موقف متأزم، أشبهت ليلته بارحته، ومع المشابهة في الموقف قد تنبثق مفارقة أو مفارقات بحتمية اختلاف الظرف التاريخي، فتنضاف إلى المعطى المضمن - نتيجة لذلك - شذرات تحويرية تتسق مع الحالة المفارقة فيما يشبه تنويعات على الفكرة الأولى(رجاء ١٩٨٦،١٥٩) وبذلك تتفاعل الشخصية التاريخية الماضية مع الشخصية المعاصرة، أو يتفاعل الماضي مع الحاضر لإنتاج دلالة جديدة، تعبِّر عن صدى صوت الشاعر والجماعة، وما يعتريهما من هموم وأحلام وطموحات.

٣ـ محاور الرمز التاريخي في الشعر الفلسطيني.

وظّف الشاعر الفلسطيني المقاوم المعاصر أكثر من شخصية تاريخية وحدث تاريخي تعبيراً عن أفكاره وقضاياه المعاصرة، التي يعيش من أجلها، ويؤمن بها، ويدافع عنها، إنّها رغبة لنقل هموم الواقع المعيش إلى المتلقي، ورغبة في مواجهة الحاضر التعيس المهزوم في محاور عدة، أهمها : الشخصية التاريخية ذات الموقف النبلية.

٤ـ الشخصية التاريخية ذات الموقف النبيل

المقصود بالشخصية الموقف هي الشخصية التي ((اعتنقت مبدأً وعاشت له، ودفعت حيلتها ثمناً لإيمانها بِهِ وتحملت في حياتها، ما تحملت من الإيذاء والاضطهاد وبعضها سال دمه ليكتب على صفحة الحياة موقفه النبيل، القادر على صنع الإنسانية في أسمى مفاهيمها.(هلال،،٢٠٠٩، ٨٨) وأبرز تلك الشخصيات في هذه الخانة والتي لها رواجاً واسعاً في الشعر العربي المعاصر عامة والشعر الفلسطيني خاصة، شخصية "الأمام الحسين" عليه السلام، الشخصية التي سال دمها لتكتب أنصع صفحة في سجل التاريخي البشري، كاشفة أنبل المواقف النبيلة والتي مثّلت نموذجاً للإيمان بالمبدأ.

١-٤- شخصية الإمام الحسين عليه السلام.

من أبرز الشخصيات التاريخية التي وجد فيها شعراء فلسطين رمزاً للنضال والتحدي في وجه الظلمة والطغاة، شخصية "الإمام الحسين عليه السلام" التي تبوأت مكانة سامية في مسيرة الشهادة والإصلاح، فالحسين عليه السلام أصبح أمثولة ونموذجاً حياً لكل الثائرين والناقمين على الظلم والتعسف على مدي التاريخ فهو حياً في قلوب الثوار يستلهمون منه العزيمة والقوة في نضالهم ضد الطغيان. وتحضر((كربلاء رمزاً للأسي والجراح والحزن والندم، وقد أخذ الرمز ببعديه التاريخي والشعبي حيزاً في جملة من القصائد، وأصبح النداء باسمه إشارة رمزية للغضب والحزن والشهادة في أعلي أبعادها الدينية والشعبية معاً في سبيل الموقف استذكار الموقف(الكركي،١٩٧٨، ١٤٠) فالإحتفاء بقضية عاشوراء كرمز روحي ليس مجرد استذكار أمجادها أو ذكر فضائلها ومآثرها، ولا البكاء والنحيب على مقتل الامام الحسين رغم استسلامنا لذلك الموقف المذهل وذرفنا للدموع، انما هو احياء لمعانٍ ومواقفَ ودلالات تلك الحادثة التي حفرت في تأريخ الإنسانية أثرا لم تُزِلْهُ كل متغيرات الحياة، احياء من شأنه

أن ينقلنا الى الأجواء الروحية النقية الخالصة للحسين وأهل بيته عليهم السلام.إن حالات الرفض التي استحضرها الشعراء ليواجهوا بها حيرة هذا الزمان واشتداد الطغيان فيه هي اشراقات الوعي والشهادة في سبيل الحرية.. وإذا كانت هذه الرموز غائبة عن الرسمي من الكتب فإنها حاضرة في صدور الناس ووجدانهم تمثل احتجاجهم على فشل الواقع. فقد رأى الشعراء في الامام الحسين عليه السلام المثل الفذ لصاحب القضية النبيلة الذي يعرف سلفاً أن معركته مع قوى الباطل ستؤدي إلى شهادته وشهادة أصحابه، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبذل دمه الطهور في سبيلها، موقناً أن هذا الدم هو الذي سيحقق لقضيته الانتصار والخلود، وأن في استشهاده انتصاراً له ولقضيته (عباس، ١٦١،١٩٧٨)) وفي مأساة الأمام الحسين عليه السلام باعتبارها من المآسي الكبرى، تقع- كما يقول "جبرا ابراهيم جبرا ": ((أنواع شتي من مآسي الأنسان : في جو القيظ والعطش، والقسوة والقتل الجماعي، وحزّ الرؤوس، هناك مأساة جنون بشري، ومأساة الخيانة، ومأساة القتل المجاني- وكذلك مأساة المروءة والفضيلة... الحسين أكبر من الحياة، ولعله لكبره وعلوّه، خارج الدائرة التي يمكن للمرء ضمنها أن يتوحد مع البطل، رغم تطلعه اليه، ولذا يكون التعبير الفني عنه قاصراً على مداه الفاعل)) (جبرا،١٩٨٢، ٧، نقلاً عن الكركي،١٤١). ومن هنا تصبح كربلاء محجة للثوار على مدي العصور لتمد في عضد الأمة الروح الثورية وبذل النفيس من أجل الحرية ومقارعة الظلمة والطغاة.

٢-٤- الإمام الحسين عليه السلام والعودة إلى كربلاء فلسطين

فالشاعر الفلسطيني المقاوم "أحمد دحبور" في قصيدته "العودة إلى كربلاء" حاول توظيف شريط أحداث كربلاء والكشف عن المعاناة والقهر والقتل والدمار الذي يتكبده الشعب الفلسطيني الأعزل يومياً من قبل سلطات الاحتلال. فالشاعر يريد تحويل دم الفلسطيني المراق إلى محرضٍ وباعثٍ لثورة عارمة، كما تحول دم الإمام الحسين عليه السلام إلى ثورة بركانية هائلة في قلوب المناضلين في مواجهتهم لكافة أنواع الظلم والوقوف بوجه الطغاة على مرّ التاريخ. فالقصد من وراء استدعاء رمزية كربلاء هي "الثورة" النائمة في نفوس الأحرار والتي توقظ بصرخة وتشتعل فتعود وكأنّها قيام الساعة. فالشاعر يستنطق دواخله على اعتاب كربلاء وهي تلبس الواقعة التاريخية في ذاكرة مشرد فلسطيني يستعيد

من خلالها كل ما لقيه شعبه من عنت وتعسف من قبل المحتل. فلم تعد كربلاء عند الشاعر "دحبور "مكانا إعتياداً فحسب، بل أصبحت مزاراً وحدثاً وتاريخياً ودينياً وحزناً وصارت رمزاً للشهادة والتضحية ومنارة للأحرار يستلهمون منها المواقف النبيلة:

آت ويسبقني هواي

آت وتسبقني يداي

آت على عطشي، وفي زوّادتي تمر النخيل

فليخرج الماء الدفين إلى...

وليكن الدليل (دحبور،١٩٩٨، ٢٥٧)

فالقصيدة بكاملها تمثل نفساً كربلائياً ممتداً من البداية حتى النهاية، إنّها كربلاء معاصرة ترسمها كلمات "دحبور" من وحي كربلاء الأولي. وفي هذا النص يتوحد الامام الحسين عليه السلام بالثائر الفلسطيني، الذي سيأتي لينقذ فلسطين التي تستحثه للقدوم، ويبشر هذا الثائر، بأنّه قادم بحب و((ويسبقني هواي)) وهو قادم ليعمل ((وتسبقني يداي)) وهو يحمل ((ثمر النخيل)) أي ثمر الصمود والحياة المستقبلية. فالأرض التي سيأتي اليها هي فلسطين وليست الكوفة التي تحفر بمعاولها أرض كربلا (فلسطين) لتروي عطش الحسين عليه السلام.

فالشاعر شحن القصيدة بكل معاني الحزن وأسقطها على المأساة الفلسطينية الزاخرة بالمآسي البشعة كالقتل والذبح والحرمان والنفاق والتقاعس واتجار بالدم والوطن...، ومن هنا يحصل التماهي العميق بين (كربلاء وفلسطين) وبين (سيد الشهداء الإمام الحسين والشعب الفلسطيني)، والوشيجة الثانية لهذا التماهي يتمثل بالجانب السلبي بين نفاق(أهل الكوفة) بعدم نصرتهم للحسين عليه السلام وإشهار السيف بوجه وبيعه وقتله و(الأنظمة العربية الحاكمة) التي إدعت مساندة الشعب الفلسطيني وأخذت بزعمها القضية الفلسطينية على عاتقها، بينما كانت هي تمارس الكيد والنفاق والخذلان وبيع القضية:

يا كربلاء تلمّسي وجهي بمائكِ

تكشفي عطش القتيل...

كانوا رعاة-بالثياب- وكانت الأسرار ذئبه

كنا تبايعنا على موت يقيك من عذاب الموت في الأسر الطويل

فتقاسموا ثمر النخيل، ولم يمت أحد سواي

شاهدتهم ومعي شهود:

أنت والماء الذي يغدو دماً

ودم لديهم صار ماءً والنخيل

شاهدتهم - عين المخيم فيّ لا تخطي - وكانوا :

تاجراً

ومقامراً

ومقنّعاً

كانوا دنانير الدخيل

ودخلت في موتي وحيدا أستحيل

وطناً ، ومذبحة، فغربة (المصدر السابق،٢٥٨-٢٥٩)

واذا تمعنا في النص نجد الإتحاماً تاماً ما بين الدلالة التاريخية لصورة الرمز المستدعاة والنص الحاضر، وهكذا إستحضار أنتج حالة من التقابل والتوافق ما بين النصين، فالإشتباك الدلالي الحاصل ما بينهما أفرز حالة التقابل في الذات الجمعية المتمثلة في نص الشاعر عبر(الموت والذبح والغربة) لأنّها آمنت بوجوب الدفاع عن الوطن المحتل وطرد الغزاة، وفي المقابل تمتع الآخر بموقفه السلبي وقبض اموال الخيانة والغدر بدلالة (التاجر والمقامر والمقنّع) ويتلاحم هذا الموقف السلبي الحاد والبشع مع مقتل الحسين عليه السلام بكربلاء مقابل جاه زائف وحفنة دراهم معدودة، وإتجار قاتليه بدمه الطاهر، وعلى هذا الأساس تمّ بيع الإنسان الشريف الطاهر صاحب القيم الرفيعة والدين في النص المستحضر، وبيع الإنسان الصامد المرابط والوطن في النص الحاضر، وعلي مستوي التوافق يلتحم نفاق أهل

الكوفة وخيانتهم للحسين عليه السلام والوعود التي قطعوها له مع موقف الأنظمة العربية وهكذا يخترق النص الشعري ذاكرة التراث التاريخي لاستحضارها من جديد.

وهذه القصيدة ذات بناء يتنامى فيه غضب ورؤية لزمان قادم، مستمدة من وعي بالرمز الأصل، وهو راس الحسين الذي حمل إلى عبيد الله بن زياد ثم إلى يزيد بن معاوية: راس الحسين الذي يتحول إلى راية في زمن آخر احتجاجاً على الظلم والموت والحيرة والقلق:

وتبادلوا رأسي فلم يركب على عنق

وعاد إلى بالجرح النبي

وأعود. لن يتصدروا باسمي

فجرحي جاء يلعنهم

وتشهد ما استباحوا مقلتاي

وإذا حسبت، حسبتهم في صف غاصبك الدخيل

يا كربلاء الذبح، والفرح المبيت، والمخيم، والمحبة

كل الوجوه تكشفت كل الوجوه (السابق، ٢٦٠)

فالشاعر وظّف ما حدث للحسين عليه السلام بكربلاء من تقاعس وتخاذل من قبل "أهل الكوفة" الذين دعوه وتعهدوا بمؤازرته، ليكونوا رمزاً يوحي بمواقف العرب من القضية الفلسطينية، وليكون الإمام الحسين عليه السلام الذي توحّد بالإنسان الفلسطيني شاهداً على هذا التخاذل. فالتناقض المفترض بين بعض المفردات في النص الشعري (يا كربلاء الذبح، والفرح المبيت، والمخيم، والمحبة) قد أوجده الشاعر لتوكيد شمولية كربلاء وتداخل الأصوات فيها لتجمع بين راياتها، لحظات الحزن والفرح والمحبة، فضلاً عن رمزية "المخيم" الذي تجسدت مشاهد كربلاء فيه، ليتوحد مع " المخيم " الفلسطيني الذي سجلّ تفاصيل ما تعرض له الشعب الفلسطيني في العصر الراهن في إشارة واضحة لما تعرض له الحسين واسرته وصحبه في الماضي. ومن هذا المنطلق يعيد الشاعر التذكير بمكانة الثائر في عيون الناس سيما الفقراء منهم ووقوف الحكام الظلمة في كل العصور ضدّه، ولذا يلتحم الشاعر

بكربلاء لأنّه جزء منها وويلاته صفحة من صفحاتها.

فلا يكتفي الشاعر بإعلان انتمائه إلى الحسين بل يضع نفسه جزءً رئيسياً في الحدث الكربلائي فيكون نهرها القتيل ويطالبها باخراج مائها الدفين ليقود سواقيه إلى الحقّ ويكون الدليل له:

فليخرج الماء الدفين إلى...

وليكن الدليل (المصدر السابق)

وهكذا ترتفع التجربة الشعرية لتخذ المأساة الفلسطينية إلى أبعادها الحقيقية متجاوزة الجغرافيا إلى الإنسان والحق والدين والمستقبل.

٣-٤- الإمام الحسين عليه السلام المقاومة والصمود

أما الشاعر الفلسطيني "عزالدين مناصرة" يرى في استدعاء شخصية الإمام الحسين عليه السلام في قصيدته الشهيرة "سماحة السيد الجنوب" تجسيداً للمقاومة النبلية وبطولاتها الرائعة في وجه المحتل الصهيوني. حيث يقول:

أمهات الزلازل، يسقين ورد المساء

كي يقوم (الحسين)خطيباً،

وقد زال عنا البلاء

أو تغني الحمامة أنشودة الرّيح في (كربلاء). (مناصرة،٢٠٠٩، ٦٢-٦٣).

٤-٤- كربلاء العراق/ فلسطين العصر

الشعب الفلسطيني من خلال تمسكه ببطولات وتضحيات رموز أمته وعلى رأسها بطولة الإمام الحسين عليه السلام سجّل سفراً ملحمياً جديداً من أسفار التاريخ العربي المعاصر في سعيه لطرد المحتل والغزاة واستعادة حريته المنشودة. ومن هذا المنطلق يستحضر الشاعر "طه، متوكل" كربلاء ليضخ في عروق المناضل الفلسطيني المزيد من القوة والثقة في مقارعته للإعداء والغزاة المحتلين.

أبشِّركم بالبلد

ولا أي شيء بهذا البلد

سوى القتل سيّده والقَوَدْ

وأن الذي سوف يبقى

سيقتله ذُلّهُ والكَمَدْ

يقول: لماذا دماء الشوارع تسطع

للآخرين

وكل قتيل، هنا، كربلاء تنوح

وعنوان رعب

وأصل الكَبَدْ(طه، ١٩٩٢، ٢٨)

يتمثل الشاعر في الأبيات أسلوب التعبير القرآني، ليضفي على المشهد الدرامي لقتل الفلسطيني/الحسين في شوارع فلسطين وكربلاء بعداً إشراقياً، يسطع فيه الدم، ويضيء دروب الحياة وأزقتها، وهو بهذا المعنى يضيف سفراً جديداً من أسفار النكبات والمحارق الفلسطينية الكبرى في العصر الحديث، التي يمارسها الاحتلال الصهيوني ضد شعب أعزل وحيد، يدافع عما تبقّى من وجوده ومبادئه الإنسانية كالحسين الذي قتل ظلماً وعدواناً، لعل هذا كله يحرك مستنقع الأمة الآسن، ويؤدي إلى محاولة الانبعاث والتجدد، والدفاع عن الإنسان. وعلى المستوى اللغوي، ينحرف الشاعر عن الأسلوب النمطي، أو العبارات المسكوكة في إنتاج الدلالة، ويحضر الدال "أبشركم" في السياق الشعري الذي تبدأ به الشريحة، ليتوقع منه القارئ دلالات "البشارة" المحببة إلى النفس، لكنه يفاجأ بكسر عنصر التوقع، ليجد المتلقي نفسه أمام تراكيب شعرية، ودلالات بتشكيل مخصوص، تشير إلى الطرف النقيض المتوقع، وبذلك ينقل الشاعر الدلالة من المتوقع إلى اللامتوقع، ويبلور أسلوباً مفاجئاً يهز نمطية اللغة والدلالة، وينتج دلالة جديدة من الدال "أبشركم" تهز المتلقي، وتقلب المفاهيم اللغوية والدلالية رأساً على عقب(نمرموسي،١٧) ولعل هذه المفارقة

اللغوية، تتضافر مع مفارقة تكرار الوقائع التاريخية نفسها من عصر "الحسين" إلى عصر "الفلسطيني"، أي أنها تعيد نفسها في الزمن الحاضر من جديد، وكأن الإنسان العربي لم يتعلم مما سبق، ولم يأخذ عبرة أو عظة من التاريخ ليمنع تكرار مأساة "الحسين".

وتكررت تلك المعاني الموحية في شعر "درويش" إذ يقول:

وحين احدّق فيك

اري كربلاء

واثيوبيا

والطفولة

وأقرأ خارطة الانبياء (درويش،٣٤٢)

ما تزال قضية كربلاء التاريخية قائمة في فلسطين، فالشاعر الفلسطيني يرى بعين قلبه وعين خياله كربلاء المعاصرة تحدث بكامل ثقلها في وطنه فلسطين. فيري وجوب الثورة والتضحية لازمة لاستعادة الحقوق المغتصبة. فالشاعر حين يحدق في وجه حبيبته (فلسطين)يرى كربلاء، فكربلاء ليست قضية تأريخية محلية فحسب. بل هي قضية الرسالة السماوية. فالمعاني التي اكتنزتها كلمات الشاعر توحي بذلك لتدل على أنّ النهج الحسيني الإصلاحي الثوري، هو نهج الأنبياء الذي صوّر القرآن الكريم دعواتهم ضد الباطل وضد الظلم وبين تضحياتهم من أجل مبادئ الرسالة التي أوكلوا بها من قبل السماء. فالعلاقات التي تربط النص الحاضر بالرمز المستدعاة هي علاقات معنى وترميز ودلالة، فهذا الدال يدل على ذلك المدلول، وهي بهذا التكوين والتنويع تصبح مركز الثقل الانفعالي في القصيدة وبؤرتها، وما تحققه من وجود فني وتعبيري وأدائي داخل النص وتعميق الصورة البنائية. فالشاعر يرى ان استحضار ذكرى كربلاء استنهاضا لنفسه المروّعة لتطالب بالحق ولو كانت الشهادة في سبيل الحق هي النتيجة، وماذا حل في خارطة الانبياء غير استنهاض الهمم، لتكون النفوس عاشقات للحق، وباذلات ذواتها له.. في كل أرض من كل جنس.

٥-٤-الإمام الحسين/ الجرح النازف العربي في كل عصر.

أما الشاعر سميح القاسم من خلال استدعاء شخصية الأمام الحسين عليه السلام يرى أن الدم الذي أريق بكربلاء يعتبراً رمزاً من رموز الدم العربي النازف في جسد العراق وفلسطين. حيث يقول:

في عقر دارك جزَّ الروم ناصيتي
وجاوزت خيلهم أبواب حطين
لكن ظلم ذوي القربى أشد على
روحي الجريحة من ظلم يقاويني
ما كربلاء! وفي بغداد نازفة
دماء شعبي من حين إلى حين
يا دجلة الخير، فاجرف كل شائبة
واسق المحبين، واغسل إفك مأفون...
فما أقول إذا استنطقت عن وجعي
والجرح جرحي والسكين سكيني
ويوم يزحم وجه الموت ذاكرتي
أبكي عراقي أم أبكي فلسطيني؟!(القاسم،١٩٩١، ٣٩٤)

فالأسماء والأماكن المستدعية ((داخل النص (كربلاء، حطين، فلسطين، العراق..) تفرز دلالات ذات أبعاد فجائعية، حيث "الروم" تتجلي بدلالتها المعهودة في الغزو وقتل الأبرياء، تقابل نصاعة الصورة المشرقة "لحطين" ودلالاتها الزاهية في ضمير الأمة))(نمر موسى،١٦) ولكن الذي يثير القلق والإشمئزاز والصدمة للضمير الإنساني الحيّ دوماً هو ما لحق بالحسين عليه السلام نتيجة تقاعس وخذلان اهل الكوفة ونفاقهم وتآمر الشام عليه مما أدي إلى الفجيعة الكبرى بحادثة كربلاء، وهنا يتجلى "الحسين بن على" باعتباره حاملاً لعبء النضال

البشري، حيث يسير نحو جلجلته في رضى وسكون، بعد أن تخلّى عنه الناس وتركوه وحيداً ((حاملاً جلال قضيته، ونبالة إصراره على عدم التنازل (زايد،١٩٩٧، ١٢٣) وبهذا يصبح "الحسين بن على" بطلاً تاريخياً، ويصبح استشهاده قرباناً للحرية الإنسانية المنشودة ومثالاً يحتذى به في التضحية والفداء من أجل القضية التي آمن بها.

٢- شخصية أبي ذر الغفاري(رحمة الله عليه)

من الشخصيات التاريخية المهمة التي إستدعاها الشاعر الفلسطيني، شخصية الصحابيّ الجليل "أبو ذر الغفاري". فإسمه "جندب بن جنادة"، صحابي من الأوائل اشتهر بتقواه، وتقشفه، وثورته على الفقر، والظلم الاجتماعي، وعبر عن ذلك بصيحته الشهيرة ((عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه)) (الصوري،١٩٧٩، ٧٢) تبرز تجربة أبي ذرّ الغفاري في المعارضة من خلال قصائد كثيرة في الشعر العربي المعاصر وينظر اليه بإعتباره المطارد في سبيل موقفه الذي يدعو إلى العدالة بين الجميع، ويرفع الصوت عالياً محتجاً وهو يرى النقاء الثوري زمن النبيّ، يتحول إلى ترف وابتعاد عن طهر الثورة الأول، فقد اتخذوا بعده ستور الحرير ونضائد الديباج، وكان رسول الله ينام على الحصير.. ويطاف عليهم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير (المصدر السابق، ٧٣) لقد وجد شعراء العرب المعاصرون عامة وشعراء فلسطين خاصة في شخصية أبي ذر الغفاري مجالاً خصباً للتعبير في إثراء تجاربهم الشعرية المعاصرة ووجدوا فيها كما يقال طاقات إيحائية ومرفأ يريحون عليه جوانحهم المتعبة من هموم الحياة، وقسوة الواقع، واختلال المبادئ والأنظمة، من حالات التمزق التي تعتري الإنسان المعاصر. فتظهر شخصية هذا الصحابيّ الجليل في الشعر الفلسطيني المقاوم، رمزاً للثائر المتمرد على الفقر والعوز، حيث كان أبو ذر يدعو إلى التقشف وعدم البذخ والتأسي بسلوك النبيّ ﷺ في الحياة. فبعض النقاد يرون في شخصيته، المعارض المطارد من أجل موقف نبيل وهو الدعوة إلى العدالة بين أطياف المجتمع قاطبة.

لا ريب أن التماثل الدلالي بين حياة "أبي ذر" وحياة الإنسان الفلسطيني المعاصر، ينتج دلالات جديدة منها الثورة، والسير وحيداً، والموت وحيداً، والنفي مرتين، ورفض البذخ والترف واكتناز الذهب والفضة، بالإضافة إلى القمع السياسي زمن "معاوية"، مقابل

الاحتلال زمن التخاذل العربي. وتتجلي تلك المواقف في أعظم الصور الإنسانية ((لمعارضة سياسة استغلال السلطة واحتكار الثروة من قبل الطبقة الأرستقراطية وأصحاب الثروات الضخمة الذين كانوا يمتلكون الضّياع والقصور في مختلف الولايات الإسلامية في عهد عثمان، وولاية معاوية على الشام، في حين ضاق الحال على الفقراء أن يجدوا من القوت ما يكفيهم المؤونة اليومية)) (ابراهيم حسن،١٩٩٦، ١٧٠) ومثلما كان أبو ذر أول من صاح بأعلى صوته معلناً عن اعتناقه الدعوة الجديدة أيام النبيّ ﷺ، ومتحدياً كبرياء قريش، كان كذلك - أول من صدع بصوته الجري ء ضد سياسة عثمان. كما أعلن استياءه من سياسة معاوية وكان يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء، وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها(المصدر السابق،١٧١) وعلى هذا الأساس أقام منهجه القويم وطريقته في المعارضة للحكم الذي يتيح الثراء الفاحش، ولأولئك الذين يستولون على الثروات كيفما اتفق، على حد سواء. وذلك وفق رؤية لا تقبل الفوارق بين طبقات الناس، وتدعوا إلى التكافل في المجتمع على أساس الحقوق والوجبات. (المصدر السابق، الصفحة نفسها) وهذا كله جعل من شخصية "أبي ذر" رمزاً إنسانياً بدأ برفضه لموقف "عثمان بن عفان" من أموال الغنائم، إلى اضطهاده، ثم موته منفياً. ولهذا يستثمر الشاعر هذه الأبعاد ليعقد صلة بينه وبين الإنسان الفلسطيني، ويطلق صرخة احتجاج في وجه الأنظمة العربية المعاصرة التي تعيش حياة ترف وبذخ. وقد عمل الشاعر الفلسطيني على بعث شخصية أبي ذر برؤية جديدة قائمة كما يقال على الأصل التاريخي الواقعي، ولكنها أصبحت متطورة ناهضة على مستوي آخر من الفكر الإنساني المستمد من التقاء رؤية الشاعر ذاته بعالم الشخصية وأبعادها الإنسانية. فقد عاد أبو ذر في القصيدة الفلسطينية مثقلاً بهموم الإنسان المكبوت الذي يعاني الحرمان والنفي بسبب مواقفه النبيلة. وهي قضايا ترتبط بحرية الإنسان وعلاقته بالحاكم، ومحاولته لتحقيق المثل العليا في مجتمعه.

١-٤- أبو ذر /التمسك بالمبادئ والقيم النقية.

يستدعي "عبدالرحيم عمر" شخصية أبي ذر في قصيدته ((صلاة أبي ذر الغفاري)) للدلالة على التمسك بالمبادئ وتحمل المتاعب والآلام في سبيلها. حيث يقول:

في وحدتي وأنا البعيد عن المساجد والصلاة

في عزلتي المفروضة النكراء نرفع صوتيه

هيهات يسمع صوتيه

يا ربّ هذا صوت عبدك خائف متألم

فاليك أشكو ما بيه

مبهورة يا ربّ روحي خاوية

قد حطمتها قسوة الباغين في ليل طويل

لكنني يا ربّ لا أسطيع إلا أن أكون

ولن أكون كما يريد الظالمون

الهنئون على دمي

الشاربون دموع اطفالي الصغار

الحق في قلبي وفي قلبي الأمل

أو ليس إن جاء الأجل

خسئوا ولم يقوموا على دفع الأجل. (عمر، ١٩٨٩، ١٨٧-١٨٨)

فهذه النفسية الثائرة في شخصية الرمز التاريخي متجلية تماما في شخصية الفلسطيني، المؤمنة بالنضال والثورة والتحرر وعدم الخنوع.

٢-٤- أبو ذر/ صرخة العدالة.

ومن أهم المواقف "لأبي ذر" التي يستدعيها الشعراء صموده العنيف في مواجهة الخليفة(عثمان بن عفان)و"معاوية بن أبي سفيان"، حتى مات منفياً في الربذة، ثم اصراره العنيف أيضاً على الوقوف إلى جانب الفقراء، والدعوة إلى توزيع الأموال بالمساواة بين الناس ودعوته إلى الخروج الجائعين على السلطان واشهار سيوفهم في وجهه حين لا يجدون قوتاً لأطفالهم. (الكركي،١٩٨٧، ١٤٩) وتبرز صيحته الشهيرة حاضرة في قصيدة "خالد أبي خالد":

يامن يطعمني وصغاري

وجبة إفطار بقصيدة

هل أتسوّل

عفو أبي ذر

لكن أباذر ولد على شفتي

وفي كفيه السيف. (خالد،١٩٧٣، ٢٠-٢١)

٣-٤-أبوذر/ زعيم الثوار ضد الظلم والحرمان

واستدعي الشاعر" محمد القيسي" شخصية أبي ذر التاريخية، كزعيم ورمز للثوار المناهضين للتعسف والفقر مع اقتباس تحويري لمقولته المعروفة، إذ يقول:

من يقدر أن يمنع أماً / معدومة، جوعي/ من أن تحمل سيفاً / وإذا لزم الأمر/ أن تسرق ثمن حليب الطفل الجائع.

(القيسي،١٩٨٧، ١٣١)

وفي مقطع آخر تبدو ملامح الرمز المستدعاة معادلاً للفلسطيني المشرد الذي يلاقي أقسي العذابات الإنسانية من غربة ونفي وظلم ليتوحد مع ما عاناه "أبو ذر" في رحلة حياته القاسية :

ولكنّ هذا الغفاري يجمع أضلاعه من صحاري البلاد

مراكب جاهزاً للرحيل

حقائب للقادم المستحيل (المصدر السابق،٢٩٣)

٤-٤- أبو ذر/ نصير المدقعين

ونجد شاعر آخر مثل "على فوده" والذي يرى في شخصية أبي ذر، النصير المطارد للفقراء، فما من أحدٍ يسمع صوت هذا النصير النبيل سوي الفقراء والمدقعين.

لكن عبثاً...

من يسمع صوت الفقر

من يسمع صوت أبي ذر

غير المحزونين الفقراء(فودة،١٩٨١، ٨٢)

٥-٤- أبو ذر / الفلسطيني المُبعد

لكن الشاعر المناضل "سميح القاسم" يرى في شخصية "أبي ذر" العظيمة، رمزاً لكل فلسطيني نُفِي عن أرضه، حيث يطلق عليه اسم "ربذي" هذا العصر في إشارة إلى المكان الذي نُفي اليه الصاحبي الجليل "أبو ذر الغفاري" والذي قضي فيه آخر أيام حياته، حتى التحق برفيق الأعلى:

أنا شهيد الدمعة الخاسرة

في أمةٍ فاقدة الذاكرة

ربذي هذا العصر (القاسم،١٩٩٤، ٢٠)

أما الشاعر الفلسطيني "بسيسو" في توظيفه لشخصية "أبي ذر" ارتكز على قضية جوهرية وهي" الحرية" المنشودة التي ينشدها الإنسان العربي عامة والفلسطيني خاصة.

٦-٤-أبوذر / المحتج ضد التعسف في كل عصر

لقد حاول الشاعر الفلسطيني المقاوم " معين بسيسو" إعادة بناء رحلة أبي ذر((الذي سار وحده ومات وحده وعاد))، (الكركي، ١٥٣) المنفي الذي رحل وفي فمه كلام لم يقله لمعاوية، ولعثمان الذي يقطِعُ أرض الله وهو خاشع. إن عدم نجاح الغفاري في مسعاه قد أفسح المجال للخليفة وولاته أن يغرقوا في القيان والقصور والخمر. لقد كان الغفاري يهاجم الذين يكنزون الذهب والفضة، وأذابه - في قصيدة بسيسو((من أوراق أبي ذر الغفاري)) محاصر لأنّه يكنز الدماء في العروق. فقد عاد أبو ذر في نص "بسيسو" يجر أثقال الإنسان المكبوت المضطهد الذي يعاني الحرمان والنفي مرتين بسبب مواقفه الجريئة النبلية :

وسار وحده ومات وحده وعاد

يصيح متّ لم تزل

بقية من الكلام في فمي

نُفِيْتُ مرتين، مرة هنا،

ومرة هناك في الحديقة المعلقة

بلوت صحبة الملائكة

بلوتها سئمتها،

ضجرت من ولدانها المخلدين، حورها المزوقة

وخمرها المعتقة

وعدت يا معاوية

ألقي بشعرة الذئاب،

في مغازل العناكب المشردة

يا صاحبي حذار

من سقطة اللسان

فبغلة الأمير خلف هذه الجدران

تسمع الكلام

أميرنا حباله طويلة

وسيفه قصير(بسيسو،١٩٨١، ٢٦٢-٢٦٤)

إنّ التوظيف هنا ذو صبغة احتجاجية، والإسقاط على التاريخ العربي واضح، وإن كان لا يتحول إلى اسقاط على الواقع الحالي مباشرة. فالنص صورة فنية لأبي ذر الغفاري الغاضب ومثل هذه النزعة الاحتجاجية الغاضبة تحد من إعادة بناء الشخصية التاريخية

درامياً. فالنص يعكس صوت "أبي ذر" الناقم على أزمة الإنسان الملاحق والمنفي من قبل الأثرياء والمترفين والحكام الظلمة الذين زرعوا عيونهم في كل مكان لخنق الإنسان وزجّه في باطن الأرض. فالرموز إليه هنا، هو الفلسطيني الذي ظل وحيداً في كل أحواله يعيش مرارة العزلة والحصار والنفي دون معين ومغيث. فقد عمل الشاعر على إبراز شخصية الرمز المستحضر برؤية جديدة قائمة على ملامحها التاريخية ولكنّها كما يقال أصبحت متطورة ناهضة على مستوي آخر من الفكر الإنساني المستمد من التقاء رؤية الشاعر ذاته بعالم الشخصية وأبعادها الإنسانية. فالشاعر من خلال آلية القناع المجسدة بشخصية "أبي ذر الغفاري" استطاع تصوير التناقض المرير مع الواقع المعيش ويرفع صوته عالياً في وجه التعسف السياسي والاقتصادي، مما أدي هذا الموقف الشجاع إلى نفيه مرتين، مرة في الحياة الدنيا زمن "معاوية"، ومرة في الحياة الآخرة "الفردوس الأعلى" بعد ضجره ((وسأمه من صحبة "الملائكة" الطاهرين البررة، وكأنه وقفّ نفسه لإصلاح العيب والخلل في كل المجتمعات البشرية وأن يبتعد وأن يعتزل نهائيا عن المجتمع الملائكي الفارق من كل عيب وخلل، إن المهمة الثورية التصحيحية التي أخذها على عاتقه جعلته يعود مرة أخرى ليعلن بأعلى صوته أنه مازال "بقية من الكلام في فمه"، وأنه سيلقي بصورة عملية "شعرة معاوية في مغازل العناكب"، وهو في مسعاه هذا يصحح علاقته بالثورة بعد فشله من قبل في هداية "معاوية" إلى جادة الصواب. لاريب أن التماثل الدلالي بين حياة "أبي ذر" وحياة الإنسان الفلسطيني المعاصر، ينتج دلالات جديدة منها الثورة، والسير وحيداً، والموت وحيداً، والنفي مرتين، ورفض البذخ والترف واكتناز الذهب والفضة))(نمر موسى،٤١) بالإضافة إلى القمع السياسي زمن "معاوية"، مقابل الاحتلال الصهيوني زمن التخاذل العربي. وهذا كله كما يقال جعل من شخصية "أبي ذر" رمزاً إنسانياً بدأ برفضه لموقف "عثمان بن عفان" من أموال الغنائم، إلى اضطهاده، ثم موته منفياً. ولهذا يستثمر الشاعر هذه الأبعاد ليعقد صلة بينه وبين الإنسان الفلسطيني، ويطلق صرخة احتجاج في وجه الأنظمة العربية المعاصرة التي تعيش حياة ترف وبذخ. إذ القصيدة تتجاوز الإطار التاريخي، وتعقد مشابهة موحية بين "أبي ذر" من جهة، والإنسان الفلسطيني المشرد والمنفي من جهة ثانية، كما أنها تتخذ موقفاً تاريخياً من الأمراء وغيرهم الذين يكنزون الذهب والفضة في عصر "أبي ذر" وعصرنا الذي نعيش. والذي توعدهم ربّ العزة إذ قال فيهم : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة /٣٤)

نتيجة البحث:

استطاع الشاعر المقاوم الفلسطيني تحويل اللغة الشعرية إلى لغة رامزة تستمد قدرتها الايحائية من تجاوزها الواقع اللغوي كما انتفع من الرمز التاريخي بايحاءاته ودلالاته في التعبير عن تجاربه المعاصرة، ولم يكن الشاعر الفلسطيني يورد الرمز التاريخي وأحداثه كما هو، بل كان يورده في غالب الأحيان بعد تحطيم جزئيات المكونة للحدث، لإستثمار هذه الجزئيات والإستفادة منها، بإعادة بنائها بناء جديداً وفق رؤيته المعاصرة يخدم رؤيته الفنية وقضيته الوطنية.

من أهم ما توصلنا اليه في هذا البحث كالتالي:

- لم تكن استحضار شخصية الإمام الحسين عليه السلام في الشعر لمجرد حشد رموز أو تزيين فضاء النص بل كانت لإثراء النص بطاقاتها الموحية.
- شكّلت شخصية الإمام الحسين عليه السلام مصدراً معنوياً هاماً يستمد منها المقاوم الفلسطيني عزيمته وشخذ همّمه في مقاومة المحتل الصهيوني.
- أصبحت شخصية الإمام الحسين عليه السلام وحادثة كربلاء في النص الشعري معادل موضوعي لقضية فلسطين وأبنائها المناضلين.
- استحضار شخصية الإمام الحسين في النص الشعري ليس من باب بيان مظلوميته بل لبيان مواقفه الثورية والإنسانية التاريخية والتي صنعت منه جرحاً نازفاً عربياً في كل العصور.
- استطاع الشاعر الفلسطيني من خلال استدعاء شخصية الإمام الحسين عليه السلام وحادثة كربلاء تسليط الضوء على معاناة الشعب الفلسطيني والممارسات البشعة من قبل العدوّ المحتل الصهيوني في العصر الحاضر كما لقي الإمام واصحابه ابشع الجرائم من قبل المجرم "يزيد" وأعوانه في الماضي. فالدم الذي أريق بكربلاء وسقي نخيل العراق في الماضي هو الذي ينزف في فلسطين ويسقي الزيتون والسنديان في العصر الراهن.

- أصبح "أبو ذر" في النص الشعري هو الفلسطيني المعاصر الذي عان الويلات والعذاب بسبب مواقفه الجريئة ضد الظلم والطغيان فتحمل السجن والنفي.
- إنّ العدالة الاجتماعية التي صرخ من أجلها "أبو ذر" لاقت استجابة صادقة عند كل فلسطيني يرفض الخنوع والتعسف.
- حظيت شخصية "أبي ذر" بنصيب وافر من التوظيف بحيث أصبحت الموقف الشعوري الأبرز لما يعبرون عنه في رفضهم للظلم والدعوة إلى بسط العدالة الاجتماعية والتكافؤ الاقتصادي بين شرائح المجتمع ومناهضة الحكام السرقة وأصحاب النفوذ والأثرياء.

الملخص:

لاشك في أنّ للرمز بكافة أشكالها طاقات حضورية هائلة في وجدان الشاعر العربي المعاصر وتوظيفه من قبل الشاعر يعتمد أساساً على مخزونه الثقافي وسعة معرفته بالتراث ومدي العلاقة التي تحكم تجربته الشعرية بذلك النبع الزاخر. كما أن توظيف قصص الرموز الدينية والتاريخية وإسقاطاتها في النص الشعري يزيد من جمالية النص الحاضر وإشراقه على المستوي الفني والتقني، وذلك ناتج عن حمل تلك الرموز حمولات دلالية هائلة من بذور التجدد والإثارة والتأثير، وإيصال الشحنة المعرفية للمتلقي بتجاوزها حدود الزمان والمكان. مما يزوّد النص الشعري بالحيوية والتواصل الثري مع المتلقي. وعلى هذا الأساس وظّف الشاعر الفلسطيني الرمز كأسلوب أو تقنية تعبيرية في تجربته الشعرية الجديدة، لتعبير عن معانيه المتزاحمة في صدره وذاكرته، ويجد فيها ما لا يجده في البوح المباشر، وبل لأنّها تختصر له المسافات الطويلة من التعبير، بلمحة خاطفة. وإن كان هذا يعتمد إلى حد كبير على ثقافة المتلقي واستعداده لتقبل هذه الكثافة من الرموز. فقد وجد الشاعر الفلسطيني في تقنية الرمز إحدى الأدوات الفنية التي تسعفه في التعبير عن تجربته المعاصرة وحملها بُعد من أبعادها. وبناء على ذلك اهتم بتوظيف الرمز التاريخي المتمثل بشخصيات ذات المواقف النبيلة أي الشخصيات المصلحة والداعية إلى الخير والإصلاح كشخصية الإمام الحسين عليه السلام وشخصية الصحابيّ الجليل "أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) باعتبارهما إحدى الروافد الخصبة التي تمدّ التجربة الشعرية بطاقات دلالية وشحنات موحية يدحض التسطح عنها.

فهذا الأمر حدا بالشاعر الفلسطيني على إعادة بناء الرمز ومعطياته والتحضير له عبر قراءة شاعرية فاحصة مرتكزه على السياق الفني بوصفه خلية حية متجاوزاً القراءة الاسقاطية وصولاً للكشف عن حقائق التجربة الشعرية المعاصرة.

هذه الدراسة اعتمدت في خطتها على المنهج الوصفي - التحليلي، ترصد استدعاء الرموز التاريخية للأمة الإسلامية المنادية بالإصلاح ودلالاتها في الشعر الفلسطيني المعاصر وتركز اهتمامها على شخصية الإمام الحسين عليه السلام؛ وشخصية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري لتعالج السؤال الرئيسي: ما هو الرمز التاريخي وما مدي أثره على التجربة الشعرية؟ ثانيا :ما هي أبرز دلالات شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأبي ذر الغفاري في الشعر الفلسطيني؟ ثالثاً :ما مدي أثر هذه الدلالات على مخيلة المتلقي على الصعيد النفسي والاجتماعي؟

<u>هوامش البحث ومصادره</u>

القرآن الكريم

- إحسان، عباس(١٩٧٨): اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- بسيسو، معين (١٩٨١): الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار العودة، ط٢.

--------- (١٩٩١) : قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- حسن، إبراهيم حسن (١٩٩٦) : زعماء الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

- خالد، أبي خالد (١٩٧٣): ديوان أغنية حب إلى هانوي، العراق، بغداد.

- دحبور، أحمد (١٩٨٣): الديوان، بيروت، دار العودة.

- راجح، عبدالله (١٩٨٧) : القصيدة المغربية المعاصرة، دار البيضاء، منشورات عيون.

-الروضات، عبد عون (٢٠٠٠) : قراءة متأنية في صليب أسور، صحيفة الأيام، العدد١٦٣٠.

- رجاء، عيد (١٩٨٦) : ((الأداء الفني والقصيدة الجديدة))، مجلة فصول، المجلد٧، العدد٣.

- سليمان، خالد (١٩٨٧): ((أنماط من الغموض في الشعر العربي الحر))، الأردن، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي.

- الصكر، حاتم (١٩٩٩): مرايا نرسيس، الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- الصوري، محمد على (١٩٧٩): أبو ذر الفغاري الإشتراكي المطارد، بيروت، العربية للدراسات والنشر.

- طه، المتوكل(١٩٩٢): رغوة السؤال، القدس، دار الكتاب.

- عشري زايد، على (١٩٩٧): استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي.

- العلاق، جعفر (١٩٩٧) : الشعر والتلقي، الأردن، عمّان، دار الشرق.

- عمر، عبد الرحيم (١٩٨٩): الأعمال الشعرية الكاملة، الأردن، منشورات مكتبة عمان.

- فودة، على (١٩٨١): ديوان الغجري، بيروت، منشورات عويدات.

- قاسم، عبده قاسم (١٩٨٣) : ((الشعر والتاريخ))، مجلة فصول، المجلد ٣، العدد٢.

- القاسم، سميح (١٩٩١): الأعمال الشعرية، كفرقرع، دار الهدي.

- ---------- (١٩٩٤): الكتب السبعة، بيروت، دار الجديد

- القيسي، محمد (١٩٨٧): الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- الكركي، خالد (١٩٧٨): ((رموز الرفض والثورة في الشعر العربي الحديث)) مجلة دراسات، جامعة - الأردن، المجلد١٤، العدد٧.

- مناصرة، عزالدين (٢٠٠٩): لا سقف للسماء، عمان، دار مجدلاوي.

- هلال، عبد الناصر (٢٠٠٩): الشعر العربي المعاصر إنشطار الذات وفتنة الذاكرة، مصر، دار العلم والإيمان. الهاشمي، محمد عادل(١٩٨٦) : أثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا، الأردن، مكتبة المنار.